من تراب الطريق! (٢٦٤)

الدوم والحديث الأول (*)

ما زلت أطوف معك فى رحاب أشعار المفكر الأديب المحامى الشاعر محمد عبد الله محمد، إحدى فلتات القرن الماضى . نقلت إليك من قبل بعضاً من الحديث الثالث من قصيدة "الدوم" فى ديوانه : "العارف" .. ولكنى أعود بك اليوم إلى الحديث الأول فى هذه القصيدة التى تغرينا بالتحليق معه:-

ماذا تُريدُ لقد غاضَتْ منابعُنا ... وقَلَّ فى أرضِنَا الأنْداءُ والمطر
وذلك الشَّوكُ فينا هل يُغَيِّرُه ... تدفُّقُ الماء إنْ يأذَنْ به القدرُ
أم نحن كالدُومِ لا يَسْخُو بفاكهةٍ ... ولو تَناهَدَ فيه السيلُ والنَهرُ

* * *

يا مَنْ كتبْتَ بطاقاتٍ لِيحملَهَا ... من أوّل الدهرِ شاراتٌ وذرتُ
تخاطِبُ الكونَ لا الأفهامَ أحْرُفُها ... فتملأُ الكونَ بالأحداثِ عِلاَّتُ
إذا أردْنَا فما معنى إرادتِنَا ... ومَنْ يخالفُ ما تحوى البطاقاتُ
هذى الحماقةُ فينا وحدنا أبداً ... فهل تُقَرِّبُنا منك الحماقاتُ ؟

* * *

يعدو إليه فؤادى لائذاً وَجِلاً ... ما أكْبَرَ الكونَ بَلْ ما أصغَرَ الأمَلاَ
يضيع فى رَحْبِهِ صوتى ويَعْبُرُ بى ... بلا اكتراثٍ ويطوى سيُرهُ الأجَلاَ

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٢١

فأرٌ بِجُحْرٍ رأى قصْراً فأزعَجَـهُ ضآلةُ الفأرِ إنْ وَافَى أو ارتَحَـلاَ
يا من جعلتم لهُ عقْلاً لِيَهْدِيَـهُ تَسانَـدَ المهدِيُّ والهادى وما وَصَلاَ

* * *

أخفى النهَـارُ جلالَ الكونِ واعتَقَلَتْ فى ضَوئِهِ - العينُ إغماضاً وإبْصَاراً
وَغَرَّهَـا لعِبُ الألْـوانِ فانصرفَتْ بالقلـبِ تُلْهِيـهِ إقبـالاً وإدبـاراً
تبارَكَ الليلُ فى نَفْسٍ تراقِبُـهُ رَعَتْ نُجُومـاً بداخِلِهَـا وأقماراً
وشاهَدَتْ مطلعَ الأحـلامِ وانتَشَلَتْ منَ لُجَّـةِ الليلِ أسـراراً وأخبـاراً

* * *

هَلاَّ احترمْنَا وقارَ الصمتِ أو خَجِلَتْ مِنْ هَيبةِ الليـلِ أصـواتٌ وأضواءُ
فطالمـا نسِيَـتْ أرواحَهَـا نَسَـمٌ وأعْرَضَتْ عن نداءِ الأصـلِ أجْزاءُ
توَقَّعَت قلـقَ العصفـورِ خِفَّتَـهُ وكم يَطِيـرُ رذاذاً فى الهَـوَا المـاءُ
وذلك الزَّهْرُ أيْدِى الريح تَقْطِفُـهُ لا يعرفُ الزهْرَ أشْمَالٌ ونكبـاءُ

* * *

خَلاَ فؤادُكَ إلاَّ مِنْ شواغِلِـهِ خَلاَ مـن الوُدِّ والإنسـانِ واللهِ
الكِبْـرُ والخـوفُ يحتاطـان وَحْدَتَهُ تقاسَمَا الباقـى من إيمانِهِ الواهِـى
قد سَاءَ رأيُكَ فى الدنيـا ومَسْلَكِهَـا مذ كان فِكْـرُكَ فيهـا الآمرَ الناهِى
إنْ تَشْكُ من صَدَأ الدنيـا فمعظَمُـهُ صَدَى شواغِلِ قلبٍ مُغْلَقٍ سَـاهِى

* * *

مَلأ الحَصَى قلبَكَ القَاسِى وأغلقـه يا مـن يفضل أفكارا على النـاسِ
تُجِيـزُ حِرْقَ القُرى نَشْراً لمعتقـدٍ وفـى كرامـةِ جنْـسٍ قَتْـلَ أجناسِ
من لا يبالى إذا آراؤُهُ نَجَحَـتْ من أىِّ بُؤْسٍ أتَاهَـا النُّجْحُ أوْ بَاسِ
تلك الجسارَةُ فيها الخوفُ مَصْدرُهَا بهـا تَقَايَـضَ إفـلاسٌ بإفْـلاسِ

* * *

يا مَنْ هو الحيُّ والأحيـاءُ نَفْحَتُهُ .. من راحةِ الأمِّ لا منْ مخلَبِ الضارِى

قُدسُ الحياةِ أحالتْـهُ تفاهتُنَـا إلـَى مـجازِرِ آراءٍ وأفكـَارِ

كم يُسفَكُ الدمُ فى تفسيرِ مُجتَهـدٍ وفى مطالبِ وَهْمٍ سـائدٍ سـارِى

كم دِيسَ أثَمنُ ما فى الخلق قاطبةً وهَانَ أفضلُ ما قَدْ صاغَـهُ البارِى